

مقام الحياة في الكون

(١) هل الحياة غاية الوجود؟

كان الفلاسفة والعلماء المفكرون حتى أواخر القرن الماضي يعتقدون أن سر الحياة «قوة حيوية» أجنبية عن المادة، ومسيطرة عليها، ومحدثة العمليات الكيماوية التي تحدث في كل خلية مفردة أو مشتركة مع خلايا أخرى Molticelular، كأنَّ هذه القوة معمل كيماوي عظيم ينتج ألوف أصناف المركبات العضوية Organic نباتية وحيوانية، وبناءً على هذه العقيدة رفعوا شأن الحياة إلى أن جعلوها الغاية القصوى من الوجود؛ أي: إنَّ الكون المادي وُجد لكي تنشأ الحياة فيه ولكي تستخدمه في ظاهراتها — وُجد لأجل خاطرها.

فهل في أشكال الموجودات وظاهراتها ما يؤيد هذه العقيدة؟ بنظرة عامَّة في نشوء العوالم، كبيرها وصغيرها، وتطوُّراتها؛ يظهر لنا أنَّ الحياة لم تكن غاية الوجود المادي البتة، بل جاءت عرضاً على الأرض؛ لأنَّ الظروف الملائمة لها وُجدت عرضاً أيضاً، ليس الأمر كذلك فقط، بل إنَّ الوجود المادي لم يحبل بها لكي يتمخضها، ولا خطرت له ببال، إذا تصوَّرنا له إرادة حرَّة، بل بالأحرى إذا تعمقنا في البحث رأينا أنَّ الوجود المادي عدوُّ لدود للحياة، لا يُراعي لها شأنًا ولا رغبة ولا مصلحة، ولا يحسب لها قيمة. وإليك البيان: الحياة محدودة بحدين من درجات الحرارة: بين درجتي الجليد والغليان. وبعد هذين الحدين تتلف الخلايا الحية وتهلك حيويتها، وبالتالي لا تنشأ بتاتاً، حتى إن نمو الأحياء وتوالدها مُتوقفان على درجات الحرارة الوسطى بين ذينك الحدين، المصحوبة بالأشعة الضوئية وجاراتها القريبة. فهل في العوالم أجرام كأرضنا لا تتراوح الحرارة فيها بأقصى من ذينك الحدين؟

الفلكيون الذين درسوا السيارات درسًا دقيقًا وجدوا أن الظروف اللازمة للحياة غير موجودة في غير الأرض، بل بالعكس وجدوا أنه يُحتمل قليل الاحتمال وجود شكل من الحياة في المريخ يختلف بعض الاختلاف عن شكل الحياة في أرضنا، أو إنه يختلف عنه أكثر مما يشابهه.

أما في النجوم فلا أمل بوجود الحياة بتاتًا؛ لأنها كلها في حالة الغازية، وقلَّ ما هو منها في حالة السيولة أو حالة المزيج من السيولة والغازية، وحرارتها تفوق حرارة الأرض ألاف بل ملايين الأضعاف. بقي الأمل في أن يكون لبعض تلك النجوم القصية سيارات كسيارات أرضنا، ربما صلح بعضها للحياة كصلاحية الأرض لها، ولكن الكيفية التي تولدت السيارات بها من الشمس تذهب بهذا الأمل وتقطع كل رجاء.

لقد ثبت بالأدلة العلمية اليقينية أن السيارات لا تولد من الشمس بقانون طبيعي، وليس في سنن الاشتقاق الجرمي إلا سنة الاشتقاق السديمي إلى سديمات فإلى نجوم، وسنة اشتقاق النجوم المزدوجة Binary stars، وجميع هذه — على ما نعلمه — لا تزال في حالة الغازية والسيولة، ودرجات حرارتها عالية جدًا، وقد ثبت أيضًا أن تولد السيارات كنظفات صغيرة من شمس كبيرة بحيث تبرد عاجلاً «نسبيًا» لا يكون إلا بعارض طارئ كما حدث في توالد السيارات من الشمس.^١

وهذا العارض الطارئ نادر الحدوث جدًا قد لا يحدث لواحد من مائة مليون نجم وكل مائة مليون سنة مرّة — حسب رأي السير تجايمس تجينز — لسببين:

الأول: أن رحاب الفضاء الخالية من الأجرام بين نجم ونجم واسعة جدًا، فإذا كان معدل المسافات بين النجوم كالمسافة التي بيننا وبين أقرب نجم لنا «ألفا قنطورس» وهي نحو ٤ سنين نورية وخمس؛ فلا أمل في أن يقترب نجم إلى نجم آخر اقترابًا كافيًا للتأثير الجاذبي فيهما بحيث ينشئ مدًا وجذرًا إلا في مُصادفة نادرة جدًا جدًا.

الثاني: أن الأجرام في قرص المجرة تسير متفاوتة في اتجاه واحد دائرة حول مركز المجرة بسرعات متفاوتة كما تدور السيارات حول الشمس؛ فعلى تلك الأبعاد السحيقة

^١ وهو مرور جرم ضخم على مقربة من الشمس، فسلخ منها بقوة الجذب قدرًا كما يسلخ القمر من الشمس قدرًا، وهو ما نسميه «المد والجذر»، ولما ابتعد ذلك الجرم عن الأرض بقي القدر المسلوخ من الشمس يدور حولها، إلى أن تقطع إلى سيارات، ولهذه النظرية تفصيل جميل شرحه السير «تجايمس تجينز» في كتابه «النجوم في مسابحها».

التي بينها ينقطع الأمل بأن يُصادف مرور نجم آخر بحيث يحدث كلُّ منهما مدًّا يسلك منه نطفات صغيرة فتتجمد سيارات دائرة حوله.

(٢) الحياة مقصورة على الأرض

فلذلك يغلب الظن أن شمسنا هي الوحيدة في عالم المجرة التي تلقت باقتراب نجم آخر إليها فولدت سياراتها، وأرضنا هي الوحيدة التي صلحت لتمخض الحياة، وإن كانت هذه الصدفة قد طرأت لجرم آخر فهيئات أن تكون الظروف المناسبة للحياة متوفرة لها كما توفرت لأرضنا. وإن كانت ظروفها مناسبة أو مُقاربة لظروف أرضنا، فإن كان ثمت عملٌ كيميائي ينتج شيئًا كالحياة التي نشأت على أرضنا، فظواهره تختلف كل الاختلاف عن ظواهر حياتنا.

زد على ذلك أن دهر الحياة على الأرض قصيرٌ بين دهور التطورات الأرضية؛ فقد سبقه دهر الغازية، فدهر السيولة، فدهر التجمد الذي كانت الحرارة فيه لا تزال فوق درجة الغليان أمداً طويلاً، ثمَّ سيليه دهر البرودة والجليد، وهو أطول دهور الأرض، وبعده دهر الفناء التشععي البطيء جداً، وهو أطول من دهورها جميعاً. فعمر الحياة على الأرض قصيرٌ جداً بالنسبة إلى عُمر الأرض، وبالأحرى بالنسبة إلى عُمر الشمس وسائر النجوم.

فترى مما تقدم أن العالم المادي يتطور تطورات مختلفة ليست من مصلحة الحياة، بل بالعكس هي تطورات قاضية على الحياة؛ فإذا تبينت طور الحياة من خلال تلك الأطوار تراءت لك لمعة لمعت مصادفة في مجرى الوجود كأنها فلتة شاذة.

فلو كانت غاية الوجود إنشاء الحياة وخدمتها ووضع نفسه كأداة بين يديها، ما انحصرت الحياة في الأرض، وهي أقل من ذرة في الأكوان، ولا انحصر نشوء الجرم الصالح للحياة بسيار واحد حول شمس واحدة، ولا كان عمر الحياة ك لحظة من زمن الوجود.

فإذا حسبنا عملية الحياة مجداً وفخرًا في الخليقة فمجرتنا وسائر المجرات غير شاعرة بهذا المجد الذي لا ينطفئ لمعانه لدى لمعان أمجادها السموية، وإنما للأرض وحدها أن تفتخر وتتمجد بأن هذه العملية العجيبة — في نظر العقل البشري — كانت من حظها وحدها. وكانت مهذاً لنشوء العقل الذي هو أعجب منها وأمجد، ويُمكن أن نُسَميه فخر الوجود كله.

فلسفة الوجود

فعلى سطح هذا السيار الأرضي وحده نشأ مصادفة أعجب آيات الخليقة وأغريبها
وأمجدها – الحياة. ثم العقل. ثم العقل الاجتماعي. ثم ... ماذا؟